﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾

[الإسراء: 88]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا هدَّد بمحو القرآن - لولا رحمته - أعقبه بأمرِه للنَّبيِّ هنا أنْ يقولَ لهم: إنَّ الإتيان بمثله محالٌ، ولوْ كانَ ذلكَ مقيَّدًا باجتماعِ الثَّقلينِ من الإنسِ والجنِّ؛ فإنَّهم لنْ يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ، ولوْ كانَ بعضُهم لبعضٍ معينًا وناصرًا[1].

العلاقة بين التَّهديد بمحو القرآن، وبين نفي القدرة على إتيان الإنس والجانّ بمثله

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ظَهِيرًا﴾: جذرهُ اللغويُّ (ظهر) والمصدرُ منهُ الظُّهورُ، وهو البُدوُّ، وهو ضدُّ الاستتارِ، مِنْ ذَلِكَ: ظَهَرَ الشَّيْءُ، ويقال: ظاهرته، أي: عاونته، وأصل ذلك من الظَّهْر الذي هو الجارحة؛ لأنَّ المعاون يساعد صاحبه بجوارحه وأقواها ظهره، ثم جعل عبارة عن كلِّ معاونةٍ، وإن كانت بغير الظَّهْر حتى باللِّسان[2]، والظَّهيرُ في الآيةِ بمعنى المظاهرِ، أي: المناصرِ والمعينِ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إنِ اجتمعَ أهلُ الثَّقلينِ مِنَ الإنسِ والجنِّ بما أوتوا منْ قوَّةٍ وتمكينٍ على أنْ يعارضوا الكتابَ الحكيمَ، ويأتوا بمثلِهِ؛ فلنْ يستطيعوا أبدًا[4]، ومصيرهمُ الفشلُ والخيبةُ والخسرانُ وحدانًا وزرافاتٍ؛ بأنْ يكونَ بعضُهم لبعضٍ نصيرًا ومعاونًا.

تأكيد العجز عن الإتيان بمثل القرآن، ولو اجتمع لتحقيق ذلك الثّقلان

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 508.
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (ظهر).
(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 221.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 546.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف في الجملة المصدّرة بالفعل ﴿قُل﴾:

قولُهُ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لزيادةِ الامتنانِ لمضمونِ جملةِ الفضلِ الكبيرِ[1].

فضلُ الله تعالى الكبيرُ بمعجزة القرآن، مدعاةٌ لمزيد الامتنان

دلالةُ الأمرِ بالفعل ﴿قُل﴾:

استهلَّ الحقُّ ﷻ الاستئنافَ البيانيَّ بفعلِ الأمرِ ﴿قُل﴾؛ لغرضِ الاهتمامِ بهِ، وهو تنويهٌ بأنَّ القرآنَ لهُ من الشَّرفِ والتَّعظيمِ ما لا يدركه إلَّا هو سبحانه، وهو جارٍ في معرضِ الامتنانِ على المؤمنينَ في أنَّهُ شفاءٌ لهم ورحمةٌ، أمّا غيرهُم مِن المُعرضينَ؛ فقدْ تحدّاهُم على أنْ يأتوا بمثلهِ، فعجزوا فما ازدادوا إلّا خسارًا[2]، وقد يرادُ من فعلِ الأمرِ ﴿قُل﴾ إظهارٌ لعجزِ من يكونُ هذا الفعلُ موجَّهًا إليهِ، فهو داخلٌ تحتَ بابِ التَّحدّي[3]؛ تحدّي من كانَ شاعرًا أو خطيبًا أو مترسِّلًا أو غيرهُم.

العنايةُ بالقرآنِ والتّنويهُ بشرفهِ، والتّعجيز عن الإتيان بمثله

معنى اللّام ودلالتها في ﴿لَّئِنِ﴾:

اللّامُ في قولهِ تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ﴾ لإرادةِ القسمِ، وهي موطِّئةٌ مؤكِّدة لهُ[4]، وفي القسمِ إشارةٌ إلى أنَّه لا سبيلَ إلى معارضتهِ على وجهِ التَّأكيدِ على من يظنُّ ذلكَ مِنَ الإنسِ والجنِّ؛ فإنَّ التَّوكيدَ بالقسمِ ينقضُ دعواهُم في أنَّهم لو شاؤوا؛ لأتوا بمثلهِ[5].

التّأكيد على أنّه لا سبيلَ إلى معارضةِ القرآنِ، ولو اجتمعت الإنس والجانّ

سرُّ التّعبير بأداة الشَّرطِ (إنْ):

عبَّرَ عنْ حصولِ الشَّكِّ في اجتماعِهم على أنْ يأتوا بمثلِ القرآنِ بأداةِ الشَّرطِ (إنْ) في قولهِ: ﴿لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ﴾، ولم يستعملْ نظيرتَها

الإتيانُ بمثلِ القرآنِ مع فرضِ اجتماعِهم وتظافرهِم، أمرٌ مستحيل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 202.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 202.
(3) ابن الشّجريّ، أمالي ابن الشّجريّ: 1/ 413.
(4) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/ 437.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 508.

(إذا)[1]؛ زيادةً في تعجيزهم؛ فإنَّ اجتماع الثَّقلين على الإتيان بمثل كتاب الله مشكوكٌ فيه؛ لِما يعرفونه في قرارة أنفسهم من عجزهم عن ذلك، فالإتيانُ بمثلِ هذا الكتابِ المعجزِ بعدَ اجتماعِهم وتظافرِ جهودِهم مِن المحالِ، فكيف إذا كان اجتماعُهم على ذلك غيرَ حاصل؟! وفي ذلك إثباتٌ عجزِهم، وعجزِ مَنِ استعانوا بهم إنْ هم أرادوا ذلك.

دلالة التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿ٱجۡتَمَعَتِ﴾ ماضيًا:

لَمّا كانَ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي دالًّا على الثُّبوتِ والتَّحقُّقِ والوقوعِ[2]؛ عبَّرَ عن اجتماعِهمُ المزعومِ المفترضِ بهذهِ الصّيغةِ: ﴿لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ﴾، فكأنَّ اجتماعَهُم لأجلِ معارضةِ القرآنِ قد وقع.

مصيرُ الاجتماع على معارضة القرآن، الخيبة والفشل في كلّ زمان

دلالةُ التّعبير بصيغةِ الافتعالِ:

عبَّرَ بفعلِ الاجتماع ﴿ٱجۡتَمَعَتِ﴾، على صيغةِ الافتعالِ (افْتَعَلَ)، وهي صيغةٌ مؤذنةٌ بالتَّكلُّفِ والتَّعمُّلِ وتحميلِ النَّفسِ[3]؛ إعلامًا بأنَّ اجتماعَ الإنسِ والجنِّ؛ لتحدّي إعجازِ القرآنِ لهو أمرٌ فيه من الكلفةِ والمشقَّةِ ما فيه، فهو اجتماعٌ مفترضٌ لا يُتصوَّرُ عقلًا وقوعهُ؛ فالكلامُ سيقَ مساقَ التَّعجيزِ[4].

اجتماعُ الثَّقلين لمعارضة القرآن تكلُّفٌ وخسار

دلالةُ عطفِ الجنِّ على الإنسِ بالواوِ:

مَعَ أنَّ المعهودَ في التَّحدي بمعارضةِ القرآنِ ينصرفُ إلى الإنسِ؛ لأنَّهمُ المتكلِّمونَ بهذهِ اللُّغةِ، وأنَّ الجنَّ لا يندرجونَ تحتَ اللِّسانِ العربيِّ وما نزلَ على أساليبهِ وصورهِ[5]، إلّا أنَّهُ عطفَ عليْهِمُ الجنَّ قصدًا إلى التَّعميمِ؛ ولأنَّ المُتَحَدّينَ يزعمونَ بأنَّ الجنَّ قادرونَ على

بيان أنّ التَّعميم، إنّما كان لدحض زعمهم قيامَ الجنّ بالأعمالِ العظيمةِ

(1) (إذا) تستعمل للمقطوع بحصوله والكثير الوقوع، بخلاف (إن) الّتي أصلها الشك والإبهام، يُنظر: فاضل السّامرائيّ: معاني النّحو: 4/ 75.

(2) ديكنقوز، شرحان على مراح الأرواح، ص: 47.

(3) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/ 190 - 191.

(4) القمّاش، الحاوي في تفسير القرآن: 541/ 450.

(5) الزّركشي، البرهان في علوم القرآن: 2/ 111.

الأعمالِ العظيمةِ[1]، كما أنَّ عطْفَ الجنِّ عليهم يُستدلُّ به على دخولِهم تحتَ دعوتِه، وأنَّهُ مرسلٌ إلى الإنسِ والجنِّ[2]، ولولا ذلكَ؛ لَما وقعَ التَّحدّي على الاثنيْنِ.

نوع اللّام ودلالتها في ﴿ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ﴾:

اللّام في ﴿ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ﴾ للاستغراقِ[3]؛ للدَّلالةِ على أنَّ التَّحدّيَ يشملُ جميعَ الإنسِ والجنِّ من غيرِ تقييدٍ بزمانٍ أو مكانٍ، المعروفين بالفصاحةِ والبلاغةِ وغيرِ المعروفين، فالخطابُ يشملُ الجميعَ، والجنَّ المعروفين بإتيانهم الكهّانَ[4].

التَّحدّي يستغرقُ الإنسَ والجنَّ جميعًا، وهو مطلق التّحدّي وغايته

الغرض من تقديمِ ﴿ٱلۡإِنسُ﴾ على ﴿ٱلۡجِنُّ﴾:

في تقديم الإنسِ على الجنِّ في قولِه تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ﴾ دلالةٌ عامَّةٌ تشملُ أكثرَ الواردِ في القرآنِ، وهو أنَّه يقدِّمُ الإنسَ على الجنِّ؛ لفضلِهم وكمالِهم وشرفِهم[5]؛ فإنَّهم مشتملونَ على الأنبياءِ والأولياءِ والصّالحينَ، وفي تقديمِ الإنسِ على الجنِّ في الآيةِ دلالةٌ أخرى، وهيَ سهولةُ اجتماعِ الإنسِ لتحقيقِ ما يزعمونَ تحقيقهُ، وأنَّهم الأصلُ في البلاغةِ[6]، كما أنَّ تقديم الإنسِ على الجنِّ منْ بابِ تقديمِ الأضعفِ على الأقوى؛ فإنَّ للجنِّ قوَّةً تفوقُ قوَّةَ الإنسِ، فختمَ بالجنِّ؛ لأنَّهم إنْ عجزوا كانَ غيرُهم أعجزَ[7]، فهو من رعايةِ أسلوبِ التَّرقّي من القويِّ إلى الأقوى.

بيان أنّ للإنس شرفًا وتفضيلًا؛ لاشتمالِهم على الأنبياءِ والأولياءِ

فائدةُ اجتماعِ الثَّقلَيْنِ في السّياق المحكم:

في اجتماعِ الثَّقلينِ الإنسِ والجنِّ "تقويةُ قلوبِ أربابِ البيانِ، وأهلِ

تعاونُ الأرواحِ، كتعاونِ الأبدانِ، ذو أثر في البيان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 203.
(2) الطّوفي، الإشارات الإلهيّة إلى المباحث الأصولية، ص: 402.
(3) ابن مالك، شرح الكافيّة الشّافية: 4/ 1810.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 508.
(5) يحيى العلويّ، الطّراز: 2/ 35.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 508.
(7) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/ 260.

اللِّسانِ؛ لأنَّ في الاجتماعِ تعاونَ الأرواحِ، وهو كتعاونِ الأبدانِ"[1]؛ ولذلك عقَّبهُ بقولِه: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ لإرادةِ المبالغةِ[2] في الاتِّحادِ والتَّناصرِ المتأتّي من الاجتماعِ، وإذا ظهر عجزهم مجتمعين؛ كانوا في عدم الاجتماع أعجز.

نكتة عدمِ ذكرِ الملائكةِ مع الإنسِ والجنِّ، في سياقِ التَّحدّي:

المُنكِرون هم المقصودون بالتّحدّي دون سواهم من المخلوقين

لم يُدْرَجِ الملائكةُ معَ الإنسِ والجنِّ، في تحدّي الإتيانِ بهِ؛ لأنَّ هذا الإتيانَ داخلٌ تحتَ الكفرِ والإنكارِ، وهو متصوَّرٌ ممَّنْ يُنكرُ القرآنَ، والملائكةُ معصومونَ بعصمة اللّه لهم؛ لأنَّهم يؤمنونَ بهِ، ولا يتصوَّرُ أنْ يكونوا منكرينَ له[3].

دلالة حرف الجرّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ في السّياق:

الإيذانُ بفشلِ تحدّي القرآنِ، ولو كانوا مستعلينَ متمكّنينَ

لَمّا كانَ الحرفُ ﴿عَلَىٰٓ﴾ دالًّا على الاستعلاءِ في لسانِ العربِ[4]، وهو يفيدُ التَّمكُّنَ؛ لأنَّ المُستعليَ متمكِّنٌ في موضعهِ؛ ناسَبَ ورودهُ هنا؛ للإيذانِ بأنَّهُ لوْ وجدَ منْ يتحدّى القرآنَ من الإنسِ والجنِّ، فاجتمعوا، وكانوا على الغايةِ من التمكُّنِ المعنويِّ؛ لما استطاعوا إلى ذلكَ سبيلًا، ومنْ كانَت حالهُم هذه معَ تمكُّنِهم؛ فغيرهُم أعجزُ وأعيا.

دلالة التَّعبيرِ بالمصدرِ المؤوَّلِ ﴿أَن يَأْتُوا۟﴾:

القرآنُ باقٍ على تحدّيهِ وإعجازِهِ، ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا

عبَّرَ بالمصدرِ المؤوَّلِ ﴿أَن يَأْتُوا۟﴾، ولم يوردِ المصدرَ الصَّريحَ؛ لأنَّ المصدرَ المؤوَّلَ ذو دلالةٍ تجدُّديَّةٍ الآنَ وفي المستقبلِ، بدلالةِ ﴿أَن﴾ الَّتي تخلِّصُ الفعلَ للاستقبالِ[5]؛ فهو دالٌّ على الحدثِ والزَّمنِ، فجاءَ النَّظمُ الكريمُ بالمصدرِ المؤوَّلِ دالًّا على دوامِ العجزِ عن معارضةِ القرآنِ ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا.

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/ 583.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 203.
(3) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 5/ 489.
(4) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 190.
(5) العكبريّ، اللّباب في علل البناء والإعراب: 2/ 45.

سرُّ إسناد الفعلِ ﴿يَأۡتُواْ﴾، إلى واو الجماعة:

في قولهِ تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾، أوردَ فعلَ الإتيانِ مضارعًا مسندًا إلى واو الجماعة؛ للإشارةِ إلى أنَّهم – وإن كانوا مجموعينَ متظافرينَ يعضدُ بعضهُم بعضًا، وتتجدَّدُ محاولاتُهم المرَّةَ بعدَ المرَّةِ وقتَ اجتماعهم[1] – محكومٌ عليهم بالفشلِ والخذلانِ معَ علوِّ كعبِهم في البلاغةِ، ورسوخِ عرقِهم في أساليبِها وفنونِها، ففضَّلوا حملَ السَّيفِ والسِّنانِ على المقارعةِ باللِّسانِ.

لا يدفع اجتماع المعارضين، العجز عن معارضة القرآن المبين

سرُّ تقييد الإتيان بشبه الجملة ﴿بِمِثۡلِ﴾:

في إيثارِ لفظِ المماثلةِ في قولهِ: ﴿بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ على غيرِها؛ دلالةٌ على شمولِها للمعاني العديدةِ المنتظمةِ، في نواحي الإعجازِ القرآنيِّ العلميِّ واللَّفظيِّ، وتشملُ الفصاحةَ والبلاغةَ والمعانيَ والآدابَ والشَّرائعَ وسواها[2]؛ ذلك أنّ (مثل) لفظٌ موغلٌ في التّنكير؛ لإفادته العُموم؛ فلا تنحصرُ فيه أوجهُ المغايرة والمشابهة[3]، وهذا أبين لعجزهم في كونه تحدّيًا بالإتيان بالشّبيه، ويفوت ذلك لو قيل: بقرآن.

العجز عن الإتيان بالمثل، أبين في العجز عن الإتيان بالأصل

الغرض من التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾:

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿هَٰذَا﴾ الإشارةُ إلى حاضرٍ موجودٍ، والمرادُ أنْ يأتوا بمثلِ هذا الحاضرِ الموجودِ[4]، وفي التعبير باسم الإشارة كمال تمييز، وبيان لمكانة المشار إليه.

الإشارة إلى حاضرٍ موجودٍ، كمال تمييز، يسفر عن المراد

دلالة (أل) على العهد، في لفظ ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ﴾:

اللّام في ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ للعهد، ويرادُ به الكتابُ المخصوصُ المعروفُ "الذي اشتُهر في الكائنات، وتعورف بين الأسود والأحمر، الموصوفُ بالكمالات التي لا نهاية لها"[5]، "المنزَّلُ منْ عندِ اللّه، الموصوفُ

بيان كمال المعرّف من جهةِ البلاغةِ الجليلةِ، والمعاني العجيبةِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 509.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 203.
(3) السّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 126.
(4) القمّاش، الحاوي في تفسير القرآن: 541/ 455.
(5) الطيّبي، فتوح الغيب: 11/ 453.

بالصّفاتِ الجليلةِ منْ كمالِ البلاغةِ وحسنِ النَّظمِ وجزالةِ اللَّفظِ"[1]؛ ولذا تبعَ الإشارةَ كقولهِم: هذا الرَّجلُ، وإنَّما جاءَ بهِ معرَّفًا للإشارةِ إلى كمالِه؛ "لأنَّكَ إذا قلتَ: هذا الرَّجلُ؛ فقدْ يكونُ أنْ تعنيَ كمالَهُ"[2]، واشتمالَهُ على الأخلاقِ الرّوحانيةِ والهدايةِ القويمةِ.

بلاغةُ النَّفي بالحرف (لا) في السّياق:

سياق النّفي تأكيد على أنّ الإتيان بمثل القرآن لم يقعْ، ولن يقعَ منهُم

التَّعبيرُ بـ ﴿لَا يَأْتُونَ﴾ على صيغةِ (لا يَفْعَلُ) له دلالتهُ في لسانِ العربِ، المنسجمةُ مع سياقِ الآيةِ الدّالَّةِ على نفي هذا الفعلِ بأبلغِ صورةٍ؛ لأنَّ النَّفيَ بـ﴿لَا﴾ يشمل الحاضر والمستقبل، فهي تفيد أنَّ الإتيانَ بمثلِ هذا القرآنِ منتفٍ على مرِّ الزَّمنِ، وأنَّه لا طاقةَ للإنسِ والجنِّ عليهِ[3]، فهي قد تكون للحال، وقد تكون للاستقبال، وقد تكون للاستمرار[4].

سرُّ تكرارِ الفعلِ منفيًّا، مسندًا إلى واو الجماعة:

فشلُ الإتيانِ بمثل القرآن مؤكَّدٌ، وإن اجتمعوا في الحاضر والمستقبل

قوله: ﴿لَا يَأْتُونَ﴾ تكرارٌ لفعلِ الإتيانِ، وهو بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ المسند إلى واو الجماعة؛ للإشارةِ إلى تأكيدِ انتفاءِ الإتيانِ، وفشلِ تحدّيهم، وإن اجتمعوا، وظاهرَ بعضهُم بعضًا، ويقوّيه التَّعبيرُ بـ﴿لَا﴾ الدّالَّةِ على الحال والاستقبالِ في أصلِها[5]، فإنَّهم عاجزون في الحاضرِ والمستقبلِ.

الغرض من التَّعبير بالإظهار في موضع الإضمار:

أهمّيّة الاحتراز مِن توهُّمِ أنَّ له مثلًا، ونفي الإتيان بمماثل له

لَمّا ذكرَ المثلَ في قولهِ تعالى: ﴿بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾؛ أعادهُ مظهرًا لا ضميرًا يعودُ على الأوَّلِ بقولهِ: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ احترازًا من أن يتوهَّمَ أحدٌ أن يكونَ لهُ مثلٌ معيَّنٌ يشبههُ، وهو مؤذنٌ بأنَّ المرادَ

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 305.
(2) سيبويه، الكتاب: 2/ 94.
(3) القمّاش، الحاوي في تفسير القرآن: 541/ 450.
(4) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 206.
(5) الرّمانيّ، شرح كتاب سيبويه، ص: 1064.

نفيُ الإتيانِ بكلامٍ مماثلٍ لهُ من الصِّفاتِ البديعةِ، وفيهم العربُ من أربابِ البراعةِ والفصاحةِ والبيانِ[1]، كما أنَّ في تكرارِ لفظِ المثلِ في قولهِ: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ فائدةً، وهي أنَّه جارٍ على سبيلِ التَّوكيدِ والإيضاحِ في أنَّ المرادَ أن يأتوا بمثلهِ لا أن يأتوا بالقرآنِ، ففي تكرارهِ رفْعٌ لهذا الاحتمالِ[2]، فالمثلُ هو الدّاخلُ في حيّزِ النَّفي؛ فإنَّهُ لا ينفي عنهم الإتيانَ بالقرآنِ نفسهِ، بلْ بمثلهِ، وهو أشبهُ ما يكونُ بصورتهِ في الحقيقةِ والماهيَّةِ، فإذا عجزوا عن الإتيانِ بصورتهِ؛ فهلْ هم قادرونَ على الإتيانِ بالأصلِ[3]؟

سرُّ تحدّيهِم بالإتيان بمثله أو عَشرِ سورٍ أو آية:

تصعيد التّحدي، إيغالٌ في الاحتياطِ، وشدَّةُ استبصارٍ في الإنكارِ

لعلَّ سائلًا يسألُ عنْ تحدّيهِم في هذهِ الآيةِ بأنْ يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ، فيما تحدّاهم في آياتٍ أخرى أنْ يأتوا بعشرِ سورٍ بقولهِ تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: 13]، أو أن يأتوا بسورةٍ واحدةٍ بقولهِ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: 38]، والجوابُ عنْ ذلكَ: أنَّهُ داخلٌ تحتَ بابِ الإيغالِ في الاحتياطِ، "كما يقولُ الرَّجلُ لمنْ يجحدهُ: ما يستحقُّ عليَّ درهمًا ولا دانقًا ولا حبَّةً، ولا كثيرًا ولا قليلًا، ولوْ قالَ: ما يستحقُّ عليَّ شيئًا، لأغنى في الظّاهرِ عنْ ذلكَ، لكنَّ التَّفصيلَ والتَّنزُّلَ دلَّ على الاحتياطِ، وعلى شدَّةِ الاستبصارِ في الإنكارِ"[4].

دلالة (الواوِ) في قوله: ﴿وَلَوْ كَانَ﴾:

العجز عن التّحدّي، مجتمعينَ أو وحدانًا

الواوُ في قولهِ تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ دالَّةٌ على الحالِ[5]، والمرادُ منها استقصاءُ الأحوالِ جميعًا، أي: وجودُ الفعلِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 193.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 110.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 14/ 8731.
(4) ابن أبي الإصبع، تحرير التّحبير، ص: 236.
(5) الخرّاط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 2/ 628.

على كلِّ حالٍ، وهي على وِزانِ قوله ﷺ: "أعطوا السّائلَ ولو جاءَ على ظهرِ فرسٍ"[1]، أي: أعطوهُ في الأحوالِ كلِّها لا مقيَّدًا بحالٍ واحدةٍ؛ فإنَّهم لن يأتوا بمثلِه في أحوالِهم جميعًا مجتمعينَ كانوا أو وحدانًا.

سرُّ التَّعبيرِ بالأداة ﴿لَوْ﴾:

أثـر التّأكيد بالأداة الوصليَّة الرّابطة في إفادة المبالغةِ

﴿وَلَوْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ دالَّةٌ على الوصلِ والرَّبطِ في مقامِ التَّأكيدِ، وهي منزوعةُ الشَّرطِ يؤتى بها للمبالغةِ؛ فما بعدَها مظنَّةٌ ألّا يشملَهُ ما كانَ قبلَها[2]؛ لأنَّ ما قبلَها يأتي على سبيلِ الاستقصاءِ[3]، فلو تظاهرَ الإنسُ والجنُّ؛ فلن يأتوا بمثلِ هذا الكتابِ المعجزِ، فلا يتوهَّمَنَّ متوهِّمٌ، أنَّ تظاهرَهُم وتظافرَهُم، فيهِ تحقيقُ مرادِهم، بمعارضتِه بعدَ اجتماعِهم، فـ(لو) مستقصيةٌ أحوالَهُم جميعَها مِن اجتماعِهم، وأنْ ينصرَ بعضُهُم بعضًا.

علَّةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿كَانَ﴾ ماضيًا:

المكلَّفونَ مجبولونَ على المخالفةِ، وتناقضِ الأغراضِ

عبَّرَ بفعلِ الكينونةِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾؛ للإيذانِ بأنَّ المكلَّفينَ مجبولونَ على المخالفةِ وتناقضِ المقاصدِ، وأنَّ هذا منْ طباعِهم، وعاداتِهم[4] الَّتي جُبلوا عليها، ولا يستطيعونَ عنها حَيْدةً.

سرُّ التَّعبير بلفظ ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ﴾:

المُباعضة دليلُ التّعاضد، وهو دليل على عجزهم عن التّحدّي

البعض: الجزء أو الطّائفة من الشَّيء قلَّت أو كثرت[5]، والتَّعبير بـ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ﴾ دالٌّ على التَّلاحمِ والتَّعاضدِ، أي: ضمِّ أقوى ما في كلِّ واحدٍ إلى أقوى ما في صاحبه، فيتعاضدون عونًا؛ لتحقيق

(1) ابن عادل، اللّباب: 12/ 383، والحديث ذكره بنصِّه هذا ابن الأثير، جامع الأصول في أحاديث الرّسول: 6/ 454.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 203.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 480 - 481.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 509 - 510.
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (بعض).

ما يتوخَّونه من الإتيان بمثله[1]، فالمُباعضةُ دليلُ التَّعاضد، والهمَّة على الإنجاز.

دلالة اللّام، في شبه الجملة ﴿لِبَعۡضٍ﴾:

يعينُ بعضهُم بعضًا، بضمِّ أقوى ما فيهِ إلى أقوى ما في بعضِهم الآخرِ

اللّام في قولهِ تعالى: ﴿بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ تدلُّ على المِلكِ والاستحقاقِ بطريقِ الملابسةِ[2]، أي: أن يكونَ بعضهُم معينًا لبعضهم الآخرِ؛ بأن يضمَّ أحدهم إلى الآخر أشدَّ ما عنده، وأقواه، ولفظُ ﴿ظَهِيرٗا﴾ بمعنى المعينِ المظاهرِ، وفيهِ دلالةٌ على زيادةِ القوَّةِ والتمكُّنِ؛ فيكونُ المعاونُ كالظَّهرِ لصاحبهِ في الدَّفعِ عنهُ[3]، ولذا استُعملَ هذا اللَّفظُ في الآيةِ، "قالَ ابنُ عبّاسٍ: يريدُ: مُعينًا مثلَما يتعاونُ الشُّعراءُ على بيتِ شِعرٍ، فيقيمونهُ"[4]، وقدْ كانَ الشِّعرُ ديوانَ العربِ، فخيرُ ما يتَّخذونهُ - بحسبِ ظنِّهم وفرطِ جهلهم - أنموذجًا يبنونَ عليهِ محاولاتِهم في تحدّي القرآنِ هو الشِّعرُ.

إيثار استعمال ﴿ظَهِيرٗا﴾ نكرة على وزنِ (فَعيل):

الظَّهيرُ بمعنى المُعينِ والنّاصرِ إفرادًا وجمعًا، مفيد في بيان المراد

لفظُ ﴿ظَهِيرٗا﴾ بمعنى المعينِ المظاهرِ، وفيهِ دلالةٌ على زيادةِ القوَّةِ والتمكُّنِ؛ فيكونُ المعاونُ كالظَّهرِ لصاحبهِ في الدَّفعِ عنهُ[5]، وقد جاءت ﴿ظَهِيرٗا﴾ على صيغةِ (فَعيل)؛ لأنَّ هذهِ الصيغةَ ممّا يجوزُ استعمالها للمفردِ والجماعةِ[6]؛ لقولهِ تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٞ ۝٤﴾ [التحريم: 4]، وسياقُ الجملةِ يحتملُ هذا وذاكَ، وفيهِ مع التنكير فائدةٌ أخرى، وهيَ المبالغةُ في النُّصرةِ والإعانةِ؛ فإنَّ فعيلًا يأتي لإفادةِ المبالغةِ[7]، فـ﴿ظَهِيرٞ ۝٤﴾ [التحريم: 4] دالٌّ على المبالغةِ في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 510.
(2) وهو من معاني اللّام في كلام العرب، وابن يعيش، شرح المفصّل: 4/ 480.
(3) ابن فورك، تفسير ابن فورك: 2/ 100.
(4) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 127.
(5) ابن فورك، تفسير ابن فورك: 2/ 100.
(6) ابن هشام، أوضح المسالك: 1/ 192.
(7) الشّهاب الخفاجيّ، شرح درّة الغوّاص، ص: 245.

المظاهرةِ والإعانةِ والإسنادِ، وفي ذلكَ تعريضٌ بهم؛ فمهما كانتْ مظاهرتُهم؛ فَهُم مغلوبونَ مردودونَ.

فائدةُ جملةِ الفاصلةِ، في سياق الآية:

تـأكـيـدُ معنى اجتماعِ الثَّقلَيْنِ، المتضافرِ على عملٍ واحدٍ، ومقصدٍ واحدٍ

ختمَ الآيةَ بقولِه: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾، وهي جملةٌ أفادت تأكيدَ معنى قولِه: ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ المؤذن بمعنى اجتماعِ الفريقينِ المتظافرِ على عملٍ واحدٍ مُشتركٍ، ومرمًى واحدٍ مقصودٍ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المِثْل والشَّبيه:

الشَّبهُ يستعملُ في المشاهَدِ، والنَّظيرُ تشابهٌ في جنسِ الفعلِ، والمِثْلُ تطابقٌ في الذّاتِ

ذكرَ المِثْلَ في قولِه تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾، ولم يذكرْ مرادفَهُ الشَّبيهَ؛ لأنَّ الشَّبَهَ مستعملٌ في الشَّيءِ المشاهَدِ؛ فيعبَّرُ عن السَّوادِ بشبهِ السَّوادِ، ولا يقالُ في القدرةِ؛ فإنَّها مستعملةٌ في المثلِ[2]، ولمّا كانَ الإتيانُ بمثلِ القرآنِ أمرًا متعلِّقًا بالقدرةِ، وليسَ شيئًا محسوسًا مشاهدًا؛ عبَّرَ عنهُ بالمِثْلِ، ولم يعبِّرْ عنهُ بالشَّبيهِ.

الظّهير والعضيد:

الظَّهيرُ أدقُّ في التَّعبيرِ عن العجزِ عن المعارضة

أصل الظّهور واحد، يدلُّ على قوَّة وبروز، والظّهير: المعين، كأنَّه أسند ظهره إلى ظهرك[3]، وعضُد الرّجل: أنصارُه وأعوانه، والاعتضاد: التّقوّي والاستعانة، والمعاونة[4]، وكلّ شَيْء أعانك؛ فَهو عَوْن لَك، كالصَّوْم عَوْنٌ على العِبادَة، والجميع الأعوان، فالعَوْنُ: الظهيرة على الأمر[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 203.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 294.
(3) ابن فارس، المقاييس: (ظهر).
(4) الأزهريّ، التّهذيب، والرّاغب، المفردات، وابن فارس، المقاييس: (عضد).
(5) الأزهريّ، التّهذيب، والرّاغب، المفردات، وابن فارس، المقاييس: (عضد).

ولَمّا أرادَ إظهارَ عجزِهم، ولوِ اجتمعوا، وتعاونوا؛ قالَ فيهِم: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾، فذكرَ الظَّهيرَ، ولم يذكرْ ما سواهُ من المرادفاتِ كالعضيدِ، مع تقاربها في المعنى معَ الظَّهيرِ، إلّا أنَّ التَّعبيرَ بالظَّهيرِ أدقُّ في سياقِ التَّظاهرِ على الإتيانِ بكلامٍ يماثلُ القرآنَ، فجعلَ اجتماعَ الإنسِ والجنِّ للإتيانِ بمثلِ هذا القرآنِ مشابهًا لاجتماعِ الشُّعراءِ على إقامةِ البيتِ وتحبيرِهِ، وهو وإنْ كانَ ممكنًا إلا أنَّ الإتيانَ بمثلِ القرآنِ محالٌ.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والعشرون،
سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والعشرون، سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 29 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-26-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 29 : المجلد التاسع والعشرون، سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-26-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6484549 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»